الثبات وعدم التلون من أعظم سمات أهل السنة

د/ خالد بن ضحوي الظفيري

إنَّ من أعظم سمات أهل السنَّة والجماعة الثَّبات علىٰ الدِّين وعدم التلوُّن بحسَب الأهواء والمصالح والعُقول، وذلك لأنَّهم يقيمون دينَهم واعتقادَهم علىٰ كتاب الله تعالىٰ وسنَّة نبيِّه ﷺ علىٰ فهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن سار علىٰ دربهم واقتفىٰ أثرهم، فهم يعبدون ربًّا واحدًا، ويسلكون دربًا وحدًا، ويسيرون علىٰ منهج وعقيدة واحدة، فلا يجد التَّلوُّن إليهم طريقًا، ولا التذبذب إليهم سبيلًا.

لذلك أمر الله -عزَّ وجلَّ- عباده بطلب الاستقامة وسلوك صراطها، فقال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، ولمَّا كان الثبات من الله -تعالىٰ- توجَّه العباد إليه بطلب ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾.

وأخبر الله أهل الإيمان بقصص الأوَّلين ليثبِّت أهل الإيمان علىٰ إيمانهم، وأصحاب السنَّة علىٰ سنَّتهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

وقد ذمَّ الله تعالىٰ أهل التلوُّن في الدين، والمتقلِّبين بحسب أهوائهم وآرائهم، فكلَّ يوم علىٰ مذهب، وكلَّ حين بدين ورأي غير ما كانوا يعتقدون، حتَّىٰ أصبحوا كمن يعبد الله تعالىٰ علىٰ الحافَّة، فأيُّ فتنة جاءتهم أسقطتهم علىٰ وجوههم في هوَّة الضلال، ووديان الهوىٰ والانحراف، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾.

فمن ترك الكتاب والسنَّة، وترك التوكُّل علىٰ الله واعتمد علىٰ عقله ورأيه؛ فلا شكَّ بضلاله، وعدم ثباته علىٰ الحق والسنَّة، يقول شيخ الإسلام ابنُ تيمية -رحمه الله-: «ولهذا تجد من تعوَّد معارضة الشَّرع بالرأي لا يَستقرُّ في قلبه الإيمان».

عباد الله:

علىٰ العبد أن يكون ثابتًا علىٰ دينه، ولا يكون كمن ذمَّه الله من المذبذبين، قال تعالىٰ: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾.

قال الطبريُّ -رحمه الله-: «وإنَّما عنىٰ الله بذلك: أن المنافقين متحيِّرون في دينهم، لا يرجعون إلىٰ اعتقاد شيء علىٰ صحَّة، فهم لا مع المؤمنين علىٰ بصيرة، ولا مع المشركين علىٰ جهالة، ولكنهم حيارَىٰ بين ذلك، فمثلهم المثلُ الذي ضرب لهم رسولُ الله ﷺ» ، ثم ذكر حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَىٰ هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَىٰ هَذِهِ مَرَّةً**» رواه مسلم.

قال الإمام ابنُ بطَّة -رحمه الله- معلِّقًا علىٰ هذا الحديث: «كَثُر هذا الضَّرب من النّاس في زماننا هذا لا كَثَّرهم الله، وسلَّمَنا وإيَّاكم من شرِّ المنافقين، وكيد الباغين، ولا جعلنا وإيَّاكم من اللاعبين بالدين، ولا من الذين استهوتهم الشياطين، فارتدُّوا ناكصين، وصاروا حائرين».

عباد الله:

ولخطورة التلوُّن وعدم الثبات علىٰ الدين، جاءت آثار كثيرة عن السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في ذمِّ التلوُّن في الدين، والتنقُّل بين الأهواء، وعدم الثبات علىٰ السنَّة والحقِّ، وجعلوا ذلك من أعظم علامات أهل الأهواء والبدع، بل واقع أهل البدع وتاريخهم يُثبت حيرتهم وتقلُّبهم بين الأهواء بحسب المصالح والأغراض، وباختلاف العقول والأهواء.

دخل أبو مسعود الأنصاريُّ ﷺ علىٰ حذيفة ﷺ فقال: أوصنا يا أبا عبد الله. فقال حذيفة: أمَا جاءك اليقين؟! قال: بلىٰ وربِّي. قال: «فإن الضلالة حقَّ الضلالة: أن تعرف اليوم ما كنت تنكر قبل اليوم، وأن تنكر اليوم ما كنت تعرف قبل اليوم، وإيَّاك والتلوُّن، فإن دين الله واحد».

عن حذيفة ﷺ قال: «إن الفتنة تُعرض علىٰ القلوب، فأيُّ قلب أُشربها نُكتت فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نُكتت فيه نكتةٌ بيضاء، فمن أحبَّ منكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا؟ فلينظر فإن رأىٰ حلالًا كان يراه حرامًا، أو حرامًا كان يراه حلالًا؛ فقد أصابته».

وعن عديِّ بن حاتم ﷺ قال: «إنَّكم لن تزالوا بخير ما لم تعرفوا ما كنتم تنكرون، وتنكروا ما كنتم تعرفون، وما دام عالمُكم يتكلَّم بينكم غير خائف».

وسُئل محمد بن كعب القرظيُّ: ما علامةُ الخذلان؟ قال: «أن يَستَقبِحَ الرجلُ ما كان يَستحسن، ويَستحسن ما كان قبيحًا».

وعن عمر بن عبدالعزيز –رحمه الله– قال: «من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقُّل».

وعن إبراهيم النخعي –رحمه الله– قال: «كانوا يرون التلوُّن في الدين من شكِّ القلوب في الله».

وقال مالكٌ –رحمه الله–: «الداءُ العُضال: التنقُّلُ في الدِّين». وقال: قال رجلٌ: «ما كنتَ لاعبًا به فلا تلعبَنَّ بدينك».

واستمع إلىٰ نصيحة هذا الإمام وهو الآجريُّ –رحمه الله– فقد قال بعد ذكره لأحاديث الفتن: «وقد ذكرت هاهنا طرفًا منها ؛ ليكون المؤمن العاقل يَحْتَاط لدينه، فإن الفتن علىٰ وجوه كثيرة، وقد مضىٰ منها فتن عظيمة، نجا منها أقوام، وهلك فيها أقوام باتباعهم الهوىٰ، وإيثارهم للدنيا، فمن أراد الله به خيرًا فتح له باب الدعاء، والتجأ إلىٰ مولاه الكريم، وخاف علىٰ دينه، وحفظ لسانه، وعرف زمانه، ولزم المحجَّة الواضحة السواد الأعظم، ولم يتلوَّن في دينه، وعبد ربَّه تعالىٰ، فترك الخوض في الفتنة، فإن الفتنة يفتضح عندها خلق كثير، ألم تسمع إلىٰ قول النبيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، وهو محذِّر أمَّته الفتن ؟ قال: «**يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، ويُصْبِحُ كَافِرًا**»».

فاللهم إنا نسألك الثبات علىٰ الحق والسنة إلىٰ أن نلقاك، أقول ما تسمعون وأستغفر الله العظيم لي ولكم من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

من تدبر حال أهل السنة السلفيين يجدهم ثابتين علىٰ دينهم لا تتغير مواقفهم بحسب مصالحهم وأهوائهم، فما يرونه حراما وبدعة فهو حرام علىٰ كل حال وما يرونه حلالا وسنة فهو حلال علىٰ كل حال، مرجعهم إلىٰ النصوص الشرعية من الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

يقول شيخ الإسلام ابنُ تيمية –رحمه الله–: «من أعرض عن الطريقة السلفيَّة النبويَّة الشرعيَّة الإلهيَّة فإنَّه لابدَّ أن يضلَّ ويتناقض، ويبقىٰ في الجهل المركَّب أو البسيط».

فهذه هي الطريقة السلفيَّة لا تناقُض فيها ولا ضلال، ولا يمكن للعبد المسلم أن يجمع بين الحق والباطل، وبين أهل السنَّة والبدعة، فالحقُّ واحد وواضح، والضلال كثير وفاضح.

أما أهل البدع فهم أشد الناس حيرة واضطرابا، يتلونون بحسب مصالح أحزابهم، فما رآه الحزب حسنا فهو حسن، وما رآه الحزب سيئا فهو سيء، المقياس المصلحة، والغاية الوصول إلىٰ الحكم، بل الغاية عندهم تبرر كل وسيلة ولو كانت من الشرك بالله تعالىٰ، يقول شيخ الإسلام ابنُ تيمية -رحمه الله-: «إنَّك تجد أهل الكلام أكثر النَّاس انتقالًا من قول إلىٰ قول وجزمًا بالقول في موضع، وجزمًا بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر؛ وهذا دليل عدم اليقين».

عباد الله: من تدبر أحوال أهل البدع والأحزاب الضالة وجد التلون شعارهم، والتنقل بين الأهواء دثارهم، فإن كان الحاكم منهم وعلىٰ دينهم فهو خليفة المسلمين وإمام المتقين لا يجوز الخروج عليه ولا المظاهرات، ولو كان يقر الزنا والشذوذ وشرب الخمور، أو كان لا يرىٰ الفرق بين النصارىٰ والمسلمين أو ينكر الحدود، ومن خرج عليه وجب قتله وحبسه، وحل ماله ودمه، وإن كان ولي الأمر لدولة مسلمة ليس علىٰ طريقتهم وحزبهم فهو ملعون مذموم يسبونه ليل نهار ويقيمون الدورات والندوات لتحريض الشعوب للخروج عليه، ويحثون علىٰ المظاهرات والاعتصامات، ولو كان صالحا داعيا للتوحيد والسنة، أو خادما للحرمين والقرآن.

وإذا كان الرجل الداعية منهم فهو القدوة الشهيد الإمام ولو كان يسب الصحابة أو يكفر المجتمعات أو قائم علىٰ بدع وضلالات، فلا يضره ذنب ما دام أنه منهم، وإذا كان العالم الرباني داعية التوحيد والسنة القائم علىٰ شرع الله الداعي إلىٰ الله علىٰ بصيرة ليس منهم فهو الكافر المنافق عبد السلطان والمال.

فيا لله العجب، ما أكثر تناقضهم وأكثر فضائحهم والتاريخ يشهد ويسطر، والناس ترىٰ وتبصر، فاحذروا عباد الله هذه الأصناف فإنها الداء القاتل والسم الزعاف، وعليكم بلزوم الكتاب والسنة وطريقة أهل السنة السلفية الحقة، والرجوع إلىٰ أهل العلم الكبار المشهود لهم بالعقيدة والعلم والفضل. ودعوا عندكم بنيات الطريق.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا علىٰ دينك، .....